مجلة علوم الإنسان والمجتمع...ISSN:2253-0347 | المجلد 08 / العـــدد: 01 (2019)، ص 29– 44

مقومات البناء الحضاري عند مالك بن نبي

Construction of civilization construction in the Thought of Malik Ibin Nabi

د/ صبرينة حديدان [1]،

[1] جامعة محمد الصديق بن يحي - جيجل، الجزائر **Mail :**hadidenesabrina@gmail.com

تاريخ الاستلام:2018/11/23 تاريخ القبول: 2019/02/14

المؤلف المرسل: حديدان صبرينة، Mail : hadidenesabrina@gmail.com

الملخص:

على الرغم من المرتبة التي تحتلها أفكار مالك بن نبي في الوسط العلمي، إلا أن تحليل أفكاره والاهتمام بها في الجزائر مازال محتشما، رغم التأكد من الثراء العلمي لهذه الأفكار، والذي يؤهلها لتحليل معظم القضايا السوسيولوجية المعاصرة، مما وصف الكاتب بأنه سابق لعصره. ولأن مالك بن نبي، قد اهتم بمسألة الحضارة، مؤكدا أنّ قيمها تبنى ولا تستعار، فقد جاءت هذه الورقة البحثية، لتعرض المركّبات الأساسية للبناء الحضاري عند مالك بن نبي.

الكلمات المفتاحية: مقومات؛ البناء الحضاري؛ مالك بن نبي.

Abstract:

Malik Ibin Nabi's ideas occupy a high place in the scientific world, but it does not receive much attention in Algeria. The interest in his ideas came late due to the richness of these ideas. The most interesting thing about Malik Ibin Nabi, is the question of civilization, stressing that they are built and not borrowed.

This paper was presented to expose the elements of civilization building by Malik Ibin Nabi.

Keywords: Civilization; Construction of civilization; Malik Ibin Nabi.

مقدمة:

لقد قدّم مالك بن نبي مشروعا حضاريا مبنياّ على القيم الإيجابية، دعا فيه إلى التعامل مع مقتضيات العصر بفاعلية، متوجها إلى البحث عن السبل الكفيلة بذلك. وقد وجد أنّ أهم معّوق تواجه مجتمعاتنا هو أنها صارت عاجزة عن توليد ديناميكية اجتماعية تضع في الحسبان خصوصيات البيئة؛ حيث أنّها تنظر لكل ما هو آت من الغرب نظرة تقديس تمنع من تمحيصه ودراسته وتطويعه بما يتلاءم وخصوصياتها.

ولا يرجع مالك بن نبي عجز المجتمعات إلى النظم، بقدر ما يرجعه إلى العوامل الإنسانية؛ لأنّها العنصر الفاعل في عملية البناء الحضاري، فهي الوحيدة القادرة على خلق القيم الإيجابية، وتوجيه جهودها نحو الاستغلال العقلاني للموارد المتاحة بين أيديها.

ولما كان البناء الحضاري يعتمد أساسا على التجديد الحضاري، ولما كان هذا التجديد –كمحرك للأحداث– التاريخية يقوم أساسا على مجموعة من القيم، هذه القيم التي يؤمن بها المجتمع ضمن منظور عقائدي واع بقدرة الإنسان على بناء وإبداع الحضارة، ونبذ كل ما من شأنه توجيه العمل نحو انتهاج أسلوب التقليد والتكديس الذي يؤدي إلى تكديس حضاري مزيف ومشبوه يعتمد على استيراد منتجات مادية من بيئات مختلفة بغض النظر عن القيم التي تحتويها، فلابد من التساؤل:

ما هي مقومات البناء الحضاري عند مالك بن نبي؟

ولعل الوصول إلى إجابة شافية عن هذا التساؤل، تستدعي منا التوقف عند بعض أفكار مالك بن نبي، والتي ضمنها تحليلا لمسألة البناء الحضاري على النحو التالي:

I . أسبقية القيم الثقافية على القيم الاقتصادية: شغل مفهوم القيم العديد من الباحثين في مجالات شتّى ومنها المؤسسات، وذلك بعد تنامي المشكلات التي صاحبت الاهتمام بالبعد الاقتصادي والتقني، وإهمال الموارد البشرية، خاصة ما تعلّق بثقافاتهم وما تحمله من قيم. فتوّجه المسيرون للاهتمام بالنسق القيمي للموارد البشرية، الذي يعّرف على أنّه: " مجموعة مبادئ وضوابط سلوكية أخلاقية، تحدد تصرفات الأفراد والمجتمعات ضمن مسارات معينة، إذ تصبها في قالب ينسجم مع عادات وتقاليد وأعراف المجتمع."[1] ولقد أكد مالك

بن نبي على أنّ كل الأنظمة التي تقام على أسس اقتصادية بحتة، وتهمل القيم الأخلاقية، هي أنظمة مآلها الفشل والزوال.

والحقيقة أن مالك بن نبي لم يخصص القيم الأخلاقية بالدراسة والتحليل، إلّا عندما ضّمنها في تحليله لمفهوم الثقافة، إذ تعّرف الثقافة عنده على أنّها: " مجموعة من الصفات الخلقية والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته وتصبح لا شعوريا العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه."[2] هكذا نرى كيف أنّ الثقافة عند مالك بن نبي تعتمد في أساسها على القيم الأخلاقية.

وقد اعتبر أنّ سبيل النجاة في المراحل الصعبة من التاريخ، والحل لمشكلات الأمة المتراكمة يكمن في عودتها للنسق الثقافي المتأصل في مجتمعها، وهو بالنسبة له طوق النجاة الحامي من الغرق. وأكثر من ذلك " فالثقافة... هي حياة المجتمع التي بدونها يصبح المجتمع ميتا."[3] فهي التي تحدث التوليفة الاجتماعية عن طريق تركيب عالم الأشخاص، (وهو واحد من العوالم الثلاث: الأشخاص، الأفكار والأشياء، المشكلة لشبكة العلاقات الاجتماعية) بعد إعداده ضمن أنموذج وبرنامج تربوي، يتحدد انطلاقا من فلسفة أخلاقية تكون المنطلق الأساسي للخطة التربوية للثقافة. وبذلك فالثقافة " تخلق الإنسان الذي يراقب، ويراقب ذاته في بادئ الأمر."[4]

ولأنّ الثقافة وما تحتويه من قيم أخلاقية، عبارة عن نسق يتقاسمه أعضاء المجتمع، فإنّ المهمة الأساسية لها هي تحويل الأفراد إلى أعضاء، وذلك بتعليمهم العيش المشترك والعمل المشترك. وهنا "يتداخل الجانب الأخلاقي والجانب المنطقي ليكّونا معا العمل الفعّال أو العمل التافه." [5]

وفي هذا المجال يثير مالك بن نبي مسألة على درجة بالغة من الخطورة والأهمية، وهي أولوية الواجب على الحق، مؤكدا بذلك على أن التطوير لا ينبع من الحاجات بل من المبادئ والوسائل القادرة على الخلق والإبداع. مبيّنا أنّ المطالبة بالحقوق غريزة ترتبط بالميل الطبيعي عند كل البشر، الذين جبلوا على المطالبة بما لهم من حقوق، ونسيان ما عليهم من واجبات، ما لم تعمل الإرادة البشرية على توجيه الفرد نحو معرفة واجباته والقيام بها، وهنا

يأتي دور الثقافة التي تجعل من الإنسان مراقبا لذاته أولا، ولمجتمعه ثانيا، " شرط أن تكون إرادته شرارة مقتبسة من إرادة حضارية ... إرادة تحرك المجتمع نحو مهماته الاجتماعية والاضطلاع بها."[6]

وحينما يتوجه الإنسان صوب واجباته، سيدرك تماما أنّه لا شيء مستحيل لمواجهة الواقع بكل سلبياته، كما أنّ الأمر ليس سهلا مستهانا بالصورة التي تجعله يعالج الواقع بسطحية دون الغوص في أعماق المشكلات ومسبباتها، تمهيدا لوصف الحلول الكفيلة بها، وبذلك يكون أداء الواجب أعظم تأثيرا وأجدى نتيجة من المطالبة بالحق.

وعموما، فمن وجهة نظر مالك بن نبي، فإنّه يمكن استيراد القيم الاقتصادية من منتجات مادية وتجارب اقتصادية، لكنّها متى تعارضت مع القيم الأخلاقية للأمة، فإنّها لن تكون فعّالة، حتى وإن حقّقت نجاحها في بيئات أخرى؛ لأن المسألة مسألة " صلاحية" لا مسألة " صحة"، وذلك حينما تتفق الفكرة أو تتعارض مع عناصر المعادلة الشخصية للفرد، وفي هذا الصدد يقول : " إنّ مبدأ اقتصاديا لا يمكن أن يكون له أثره ومقدرته على التأثير إلا في الظروف التي يتفق فيها مع تجربة اجتماعية معينة."[7]

فالقيم الحضارية، ومعها القيم الأخلاقية لا تستورد، بل على البلد الذي يحتاجها أن ينتجها، وهي كفيلة بإنتاج المكتسبات الاقتصادية والمادية، لأنّ الحضارة هي التي تلد منتجاتها وليس العكس.

إنّ التخلّي عن القيم الأخلاقية لصالح القيم الاقتصادية واعتبارها أساسا لبناء الحضارات وتغيير حال المجتمعات خطأ جسيم، يجعل من جهود الأمة مجرد تكديس لا بناء، وهذا التكديس يصيب العوالم الثلاث كما يلي :

- ففي عالم الأشياء، يبدو تكديسها من خلال جمع واستيراد وامتلاك كل الأدوات التي تولّدت عن حضارة الغير، وصارت تمثل المظهرالمرئي من تطورهم ورقيّهم، دون الاعتداد بالروح الكامنة وراءها، وهو ما يولّد ما أسماه مالك بن نبي: " الحضارة الشيئية".

- وفي عالم الأشخاص، نرى أنهم يصبحون مظهرا من مظاهر البطالة المقنعة. " فالمكان الذي يجب أن يشغله خمسة موظفين، يوضع فيه خمسة عشر أو عشرين بطريقة تزدوج بها مشكلة البطالة العادية مع بطالة ناشئة عن الواقع في استحداثنا لموظفين دون أن نستحدث وظائفهم."[8]
- أما التكديس في عالم الأفكار، فهو المسبب للتكديس في العالمين السابقين، لأنّ الفكرة هي التي تغيّر الواقع. ونجد ذلك مثلا في أنّ الكتاب لم يعد فضاء تعالج فيه المشكلات، وتناقش فيه الأفكار الجادة، بل صار عبارة عن تكديس لأفكار مألوفة لا إبداع فيها، وهي على الغالب أفكار جاء بها بُناة الحضارة الإسلامية من السلف، أو روادها من الغرب المعاصر. فيكون الكتاب بذلك استنساخا للكلمة وما ساوقها من مفردات، تغيب عنه روح طرح المشكلات ومعالجتها؛ " إذ أضع كلمة وآتي بكل الأفكار التي تدخل تحتها، ومن الطبيعي أنّ هذا ليس ببناء، ولكن تكديس وجمع للمفردات لا يؤدي إلى حل المشكلات ولا يأتي بنتيجة."[9]

وبهذا، فإن مالك بن نبي، جعل من التكديس أو الميل له في جميع أبعاده (الشيئية، الشخصية والفكرية) عاملا حاسما في إعاقة البناء الحضاري، الذي يقوم على التعمق في فهم كل العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها، " فمشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعّمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها."[10]

II. دور الإنسان في معادلة الحضارة : انطلاقا من أنّ بناء الحضارة يبدأ من الإنسان (المورد البشري)، فقد جعل منه مالك بن نبي القيمة الاقتصادية الأولى " بوصفه وسيلة تتحقق بها خطة التنمية ونقطة تلاقي، تلتقي عندها كل الخطوط الرئيسية في البرامج المعروضة للإنجاز."[11] فالإنسان هو الذي يحدد القيمة الاجتماعية لكل الوسائل الموجودة تحت يديه.

ويرى مالك بن نبي أن هذه النقطة هي أساس الحضارة، وأن الشخص هو المحرك الأساسي للنهضة وصناعة التاريخ، التي تتم" تبعا لتأثير طوائف اجتماعية ثلاث: تأثير

(عالم الأشخاص)، تأثير(عالم الأفكار) وتأثير (عالم الأشياء)."[12] وهي عوالم تعمل بطريقة نسقية؛ حيث يولّد عالم الأفكار النابع أصلا من عالم الأشخاص، نماذج إيديولوجية، يعمد عالم الأشخاص إلى تجسيدها على أرض الواقع مستعينا في ذلك بعالم الأشياء. فلولا وجود عالم الأشخاص لما وجدت الفكرة، ولا الوسيلة، ولما تم تجسيد الفكرة واقعيا.

ولقد فّرق مالك بن نبي بين مفهومي" الفرد" و" الشخص"؛ إذ يرتبط الفرد بالصفات البدائية التي ترتبط بالنوع، بينما يتميز الشخص بنزعات اجتماعية ترتبط بالمجتمع. " فالشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكّون النوع، وإنّما هو الكائن المعّقد الذي ينتج الحضارة، وهذا الكائن هو في حدّ ذاته نتاج الحضارة؛ إذ هو يدين لها بما يملك من أفكار وأشياء."[13]

وتأكيدا على ذلك، يركّز مالك بن نبي على الإنسان بوصفه مصدرا لكل القيم الاقتصادية؛ إذ يملك العقل الذي يفكر ويوجد النماذج الفكرية، اليد التي تنشط وتولد النماذج السلوكية، والقدرة على التحّكم في الوقت من أجل تركيز العمل. " فالإنتاج الميكانيكي والإطارات الفنية، وفعالية رؤوس الأموال... ترتبط من حيث التأثير والفاعلية بحالات خاصة تتصل بالعوامل الإنسانية."[14]

وفي هذا الصدد، يركّز الكاتب على قضية توجيه العمل التي ترتبط بتوجيه الثقافة لتغيير أوجه الحياة عامة، " وهي تأليف كل الجهود لتغيير وضع الإنسان وخلق بيئته الجديدة."[15] وليس العمل مرادفا لكسب العيش بالمعنى الاقتصادي المرتبط بالأجر، ولكنه العطاء والأخذ بالصورة التي تؤثر في التاريخ وتغيّر أحداثه. وعلى هذا الأساس، فإن أيّ تغيير يهمل الإنسان أو المورد البشري ، يكون تغييرا عابثا.

وأّول تغيير لابد أن يمس الإنسان هو " أن يتعلم كيف يعيش في جماعة، ويدرك في الوقت ذاته الأهمية الرئيسية لشبكة العلاقات الاجتماعية في تنظيم الحياة الإنسانية من أجل وظيفتها التاريخية."[16] وهذا هو معنى التحضّر الذي ينتقل بالإنسان من كونه " فردا" إلى كونه " شخصا" يتميز عن النوع بميزاته الحضارية والثقافية التي تجعله يعمل بصورة

تؤثر في التاريخ. ويتم ذلك انطلاقا من برنامج تربوي عملي اختصره الكاتب في لفظ " الثقافة".

ولعل تأكيده على المورد البشري (الإنسان)، كعامل فاعل في معادلة الحضارة يعود لكونه المحرك الأساسي لكل القيم الحضارية، المادية منها والمعنوية؛ فهو الذي يفكر ليولد لنا أفكارا وقيما، بل وإرادة تنبثق عنها سلوكات حضارية تعطي الناتج المادي لعمله من منتجات ومبان وتشييدات حضارية، وهو ما جعل مالك بن نبي يعطي للإنسان الرتبة الأولى في معادلة الحضارة قبل التراب والوقت، وهي مفاهيم سمّاها الكاتب: الطاقات الاجتماعية، التي لا بد من تعبئتها وتوجيهها توجيها يكفل وصولها لتحقيق أهدافها، على أن نضع في الحسبان دوما أنّ " الإمكان الاجتماعي هو الذي يقرر مصير الشعوب والمجتمعات والدول."[17]

وخلاصة فكره في هذا المجال، أن إهمالنا للمورد البشري أو تجاهله في أي عملية للتغيير أو البناء الحضاري، هو حكم عليها بالفشل من البداية، لأن المسألة لا تتعلق " بإنشاء بنك أو تشييد مصانع، بل بتشييد الإنسان وإنشاء سلوكه الجديد أمام كل المشكلات."[18] فالإنسان هو أس كل حضارة.

III . ارتباط الفاعلية بالمنطق العملي : إن الدراسات التنظيمية الحديثة تركّز على الفاعلية باعتبارها قيمة من القيم التنظيمية. وتعّرف عموما على أنّها: " القدرة على تحقيق الأهداف والتكيف مع البيئة بصورة تضمن النمو والتطور والاستمرار."[19]

وقد اهتم مالك بن نبي بفكرة الفاعلية اهتماما كبيرا، مبرزا أن تحقق الفاعلية في التاريخ الماضي والمستقبل المأمول هو نتاج معادلة اجتماعية– ثقافية تدفع بالإنسان (إنسان الحضارة) أن يتحرك عبر التاريخ مولدا نتائج تعود بالنفع على الفرد وعلى المجتمع.

فقضية الفاعلية عند الكاتب ترتبط ارتباطا وثيقا بالمنطق العملي، الذي جعل منه محكّا للتمييز بين الصحة والصلاحية، مؤكّدا أنّ أهم معوق تواجهه مؤسساتنا هو أنها صارت عاجزة عن توليد ديناميكية اجتماعية تضع في الحسبان خصوصيات بيئتنا[20] ، وأن كل منهج أو فلسفة هي نتاج لتركيب ثقافي تمّخضت عنه أحداث تاريخية أسهم الإنسان

في إحداثها. وفهم أوجه النشاط في بلد معيّن يوجب ردّها إلى إطار حضارة تستمد منها الحياة أشكالها، ويشكّل الفرد فيها دائما أفكاره وضروب نشاطه على المنوال الذي صنعته القرون والأجيال، " وأن هناك قيما أخلاقية واجتماعية وثقافية لا تستورد، وعلى المجتمع الذي يحتاجها أن يلدها."[21]

من أجل ذلك، يرى مالك بن نبي أن الصعوبة لا تكمن في صياغة المناهج النظرية والفلسفات الإدارية، بقدر ما تكمن في معرفة المنطق العملي؛ أي " استخراج أقصى ما يمكن من الفائدة من وسائل معينة."[22]

ويمكن فهم المنطق العملي من جهتين: إمّا أن يكون هناك منهج لا نملك الوسائل الكفيلة بتحقيقه، لأنّه أصلا قد صيغ بأفكار غير أفكارنا، ولم نستطع تكييفها مع متطلبات بيئتنا، لأنه انفصل عن الإطار الاجتماعي الذي ولد فيه. وإمّا أن نهمل المورد البشري، ودوره في بناء الحضارة، فلا نحسن استخدام الوسائل الموجودة تحت أيدينا بفعالية، لأنّنا نعتقد أن نسبة التطور التي وصلت لها هذه الوسائل تغنينا عن المورد البشري.

وتأكيدا على مبدأ الفاعلية، يقرن مالك بن نبي كل نشاط عملي بالفكر مباشرة، ويرى أنّه " متى انعدمت العلاقة بين النشاط والفكر عمي النشاط واضطرب وأصبح جهدا بلا دافع، وكذلك حين يصاب الفكر أو ينعدم، فإن النشاط يصبح مختلّا أو مستحيلا."[23]

فالفاعلية تعتمد في تحقيقها على العلاقة بين الفكرة والنشاط، وهو ما يبرّره مبدأ الصلاحية لا الصحّة؛ فالفكرة الصحيحة ليست بالضرورة صالحة، إذ أن الفكرة التي أثبتت نجاحها في بلاد الغرب لا تحدث عندنا التأثير نفسه، لأنّها فكرة انفصلت عن إطارها الاجتماعي، وبالتالي فقدت الروح التي تحقق لها سبيل الحياة.

ويؤكد الكاتب على فكرة أن الفاعلية تنبثق من قوة العلاقة بين الفكر والنشاط، بأن تكديس منتجات الحضارة، والتي هي نتاج لفكر ما، لا يأتي بالحضارة؛ لأنّ الحضارة هي التي تلد منتجاتها وليس العكس. إذن، فمتى انعدمت العلاقة بين أفكار البشر وواقعهم الاجتماعي، فقد هذه الأفكار وظيفتها في التطبيق العملي، ولم تعد فعّالة.

كما أنّ النزعة الكمية عنده ليست بأي حال من الأحوال مقياسا للفاعلية، لأنّ العبرة بالنوع وما يمكن أن يقدمه من جودة تمثل مفهوم الصلاحية، لا بالكم والتعداد؛ إذ أن الكتاب الذي يكثر عدد صفحاته ليس بالضرورة كتابا قيّما. وهو بذلك ينبذ النزعة الكمية التي" تُعوِّد المرء النظر إلى فاعلية الشيء وإلى قيمته من خلال الكمية أو العدد."[24]

وكما أن ارتباط النشاط بالفكرة يبرز في ما أسماه مالك بن نبي بالمنطق العملي، فإن هذا المنطق العملي لا يحتاج لعقل مجرد، هذا العقل الموجود لدى عامة الناس، بل يحتاج لعقل تطبيقي، يربط العمل بوسائله الملائمة، ويوّجه سلوك صاحبه إلى النشاط الفعّال، ذلك النشاط الذي يرفض العبث والمحاولات الهازلة.

ويؤّكد مالك بن نبي على أنّ الفاعلية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالفرد المبادر، معتبرا أنّ " روح المبادرة هي المقياس الوحيد لفاعلية الفرد."[25] والفرد المبارد هو الفرد الذي تتصل دوافعه بأفكاره وحركاته ليولد فاعلية أكبر، رابطا في ذلك بين ما يختلج في النفس من دوافع قوية، وما يتولد في العقل من أفكار سليمة ومعتدلة، وما ينبعث في الجسم من حركات نشطة؛ حيث أنّ " الفاعلية تكون أقوى في الوسط الذي ينتج أقوى الدوافع، وأقوم التوجيهات، وأنشط الحركات."

"وهذا يعني أنه يجب علينا أن ننطلق في العمل بالاعتماد على قدراتنا الذاتية والإمكانات المتاحة لنا، ولا ننتظر ساعة المعجزات."[26] إذ " ليس من المقبول أن نستثمر ما نرغب ونريده حتى بالوسائل التي هي في يد الغير. بل علينا أن نستثمر بالوسائل الموجودة في أيدينا."[27]

وعلى اعتبار أن معادلة الحضارة عنده تتكون من ثلاث متغيرات لكل منها تأثيره على هذه المعادلة كما يلي:

ناتج حضاري = إنسان + تراب + وقت،[28] فإنّ الإنسان هو الجزء الأساسي في هذه المعادلة، لأنّه يؤثر على المجتمع عموما، وعلى البناء الحضاري فيه بفكره وبماله وبمجهوداته المجّسدة في العمل وما ينتج عنه من قيم حضارية.

IV. أهمية العمل المشترك : لعّل أبرز تجسيد لهذا المبدأ عند مالك بن نبي، هو مناداته باتحاد إسلامي، وحدة لها مبرّراتها الجغرافية السياسية، السيكولوجية والفنية، التي هدفها توجيه العالم الإسلامي وجهة تحّقق التطور والتفوق. وهذا ما جسّده في كتابه: " فكرة كومنولث إسلامي".

ولقد أقّر مالك بن نبي في هذا الكتاب بالذات، أنّ مثل هذا المشروع لا يمكن إنجازه بطريقة فردية، بل انطلاقا من تضافر جهود هيئات عديدة، "... فتحقيق هذا النوع، لا يمكن أن يقوم به فرد منعزل، لأنه من مهام هيئة مشتركة من الأخصائيين، الذين يتقاسمون فيما بينهم المظاهر والقطاعات المختلفة لهذه المهمة، كل في دائرة اختصاصه."[29]

وعموما، فمبدأ العمل المشترك كان واردا في معظم كاتبات مالك بن نبي، مؤّكدا على ذلك بأنّ :" الفرد للمجموع، والمجموع للفرد."[30] ويرتبط العمل المشترك عنده بما تحمله الجماعة من حركة إيجابية توّجهها نحو تحقيق الغايات، " وتكسب الجماعة الإنسانية صفة المجتمع، عندما تشرع في الحركة؛ أي عندما تبدأ في تغيير نفسها من أجل الوصول إلى غاياتها."[31]

وفي كتابه ميلاد مجتمع، أكّد الكاتب على أنّ الأساس في بناء المجتمعات بطريقة سليمة هو ذلك الذي أسماه:" شبكة العلاقات الاجتماعية" التي اعتبرها ضرورية جدا لأداء العمل المشترك، إذ ربط متانة هذه الشبكة وسلامتها بفاعلية الأداء، وقدرته على التأثير،" فكلما كانت شبكة العلاقات الاجتماعية أوثق، كان العمل فعّالا ومؤثّرا."[32]

وإذا ما تعّمقنا أكثر في قراءتنا لكتابات مالك بن نبي، نجد أنّه جعل من العمل الجماعي المشترك مدرسة يتعلّم فيها الفرد أصول مواجهة اللامتوقع، ويكتسب من خلالها القدرة على اكتشاف قدراته الكامنة، التي ما كان له اكتشافها لولا العمل ضمن جماعة. " وبهذا، يكون العمل المشترك أولا وقبل كل شيء المدرسة التي تكّون المسلم الجديد الذي يستطيع مواجهة كل الظروف... لأنّ مدرسة العمل المشترك تعلّمه أنّ الإرادة إذا حّركت الإنسان تجعله يكتشف الإمكان."[33]

إنّ العمل المشترك، كان عند المفكر السبب في تغيير الحياة الاجتماعية، بل أنّه العمل الذي يصنع التاريخ؛ حيث يقول عن التغييرات التي تتم في الحياة الاجتماعية : "... لا يصح أن تعزى ابتداء إلى (المادة الاجتماعية) أعني: الاقتصاد وكل ما يتصل بالعمل الحسي، وإنما تعزى إلى (العلاقات) التي تحول شروط الظاهرة الاقتصادية ذاته، حين توحد عناصرها في خلق حياة إنسانية منظمة، من أجل الاضطلاع ببعض الوظائف الاجتماعية، في نطاق (العمل المشترك) الذي يصنع التاريخ."[34]

V. مدلول السياق الزمني(الوقت): إنّ القيمة الجوهرية التي صارت تحدد مصير نجاح المجتمعات أو فشلها هي مدى استغلالها للوقت، الذي صار الجزء من المائة منه كمية متحكمة في التفوق.

فالمجتمعات الطامحة لبلوغ درجة الفاعلية وبناء أسس حضارية، لا بد أن تعدّ لذلك ذخيرة من الوقت. وهو مطلب يستحيل تحقيقه إن لم نتعامل مع هذا المورد النادر، غير القابل للتخزين لا للبيع والشراء بطريقة عقلانية منظمة توصل لأداء المهام على الوجه الأمثل في الوقت المناسب، وعدم تضييع جزء من الوقت في أعمال لا فائدة منها.

ويرى مالك بن نبي، أن تغييب المعادلة الزمنية، وعدم اعتبارها في العمل الحضاري خطأ جسيم، فالوقت " يمرق خلال الحياة، ويصب في التاريخ تلك القيم التي منحها له ما أنجز فيه من أعمال."[35]

ولا يقاس الوقت بعدد الساعات التي نعيشها، بل بقدر ما تمّ فيها من إنجازات، بعد تكييف الزمن اجتماعيا " حيث يحول إلى زمن اجتماعي، بإدماجه ضمن جميع العمليات الصناعية والاقتصادية والثقافية، باعتباره ركيزة تقوم عليها سائر اطرادات هذه العمليات."[36]

ويتجسد تأثير الوقت في معادلة العمل الحضاري في أنّه يسير بوتيرة ثابتة، لا يمكن تسريعها ولا الحد منها. فالبناء الحضاري لا يمكن تشييده بين عشية وضحاها؛ لأنه يقوم على أفكار تختمر وتتكون في مدة زمنية محددة، والتغيير لا يمكن أن يحصل في وقت قصير، لذلك لا يجب استعجال النتائج، لأنّ كل الأعمال مرهونة بمدة زمنية لا بد من أن تستوفيها لتكتمل.

"وبتحديد فكرة الزمن، يتحدد معنى التأثير والإنتاج، وهو معنى الحياة الحاضرة الذي ينقصنا. هذا المعنى الذي لم نكسبه بعد، هو مفهوم الزمن الداخل في تكوين الفكرة والنشاط، في تكوين المعاني والأشياء."[37]

وكما أنّ استعجال الوقت من معوقات العمل الحضاري، فإن تضييعه كذلك، بل إن نتائجه على البناء الحضاري والعمل النهضوي أخطر، حيث " كانت الدول المتقاتلة في الحرب الأخيرة لا تقيم خسارتها في الحرب بالذهب والفضة بل بساعات العمل، أي بقيم من الوقت."[38]

والأمة التيتضيّع الوقت، تتأخر عن الركب الحضاري، وما أن تستفيق من سباتها حتى تجد نفسها تتخبط في مشاكل جمة تحتاج لحلول مستعجلة، وهو ما يوقعها في خطأ استيراد الحلول من الدول الغربية، وهي حلول أثبتت نجاعتها في البيئة التي ولدت فيها، فما أن تنفصل عن الإطار الاجتماعي و القيمي الذي ولدت فيه حتى تفقد فاعليتها.

واعتمادا على هذا، " نجد أن الزمن يواجهنا بالضرورة كبعد لفاعلية الإنسان."[39] ذلك أنّ الإنسان الفاعل في معادلة الحضارة – كما ذكرنا سابقا- لابد أن يتحوّل من كونه فردا يكّون النوع، إلى كونه شخصا يصنع التاريخ بإرادته، مما يعطيها معنى آخر للوجود، فالإنجازات الحضارية ما هي إلا "نتيجة للإنسان الصانع لجميع الوقائع الاجتماعية، وصانعا لنفسه أولا وبالذات بوصفه كائنا اجتماعيا؛ وللتراب الذي يجسم سائر هذه الوقائع، ويدخلها حيز الملموس بمنحها الركيزة الطبيعية (أو الفيزيائية) والاقتصادية، وللزمن الذي يقدم للاطرادات المتعلقة بعلم الاجتماع الامتداد الضروري لنمّوها واكتمالها." وهو ما يتطلب منّا مدة زمنية محددة، وهذه المدة لا بدّ أن تستغّل بجميع جزئياتها، ولا نضيّع منها ثانية، كما لا نستعجل نتائج البناء الحضاري فيها.

VI. خاتمة

لقد ترتبت مقومات البناء الحضاري متسلسلة في أفكار مالك بن نبي كما تبينه كتاباته؛ حيث أنه أولى **القيم الأخلاقية** أهمية قصوى اعتبارا بالقيم الاقتصادية، معتبرا أنّ **الإنسان** هو مورد كل عمل حضاري؛ فنشوء الحضارة منوط بإرادة الإنسان المؤمن بعقيدة

ترسخ في نفسه القيم الحضارية، وحتى يعمل **بفاعلية** لابد أن يتعلم **العمل المشترك**، الذي تظهر نتائجه في **سياق زمني** محدد. معتبرا أن كل المركبات التي سبق ذكرها هي قيم إيجابية لا يمكن أن تنبني حضارة بإهمالها.

ولطالما ارتبط مفهوم القيم بالجانب الأخلاقي والتربوي، لكن ومع تطور الفكر التنظيمي برز مفهوم الثقافة التنظيمية الذي صار يعنى بقيم ومعايير ورموز المؤسسة، وببعدها الأخلاقي الرامي لترسيخ مكانتها وتعزيز مركزها في البيئة التنافسية.

وتجد مسألة القيم مكانتها بشكل كبير في فكر مالك بن نبي، الذي قدّم مشروعا حضاريا متكاملا، مركّزا فيه على القيم الأخلاقية والجمالية التي تلد القيم المادية، وبذلك تجد الحضارة طريقها.

إنّ الفكرة التي يمكن أن نختم بها هذه الورقة البحثية، هي أنّ لكل المقومات التي تم ذكرها سابقا دورا أساسيا في البناء الحضاري عند مالك بن نبي، وأن المركّب الضروري لكل تلك المقومات، والذي يمكنه شدّ أجزاء البناء الحضاري، والتركيب بين عناصره الأولية، هو **الفكرة الدينية**، التي لم يحصرها المفكّر في مجال الأفكار الغيبية والسماوية التي تدفع بالنفس إلى التعالي عن الحياة وأنشطتها، والانعزال عن متاع الحياة الدنيا، بل هي ذلك القانون الذي يوجّه الفكر الإنساني ويدعم طاقاته ويروض كل طاقاته الحيوية لبناء الحضارة.

❖ هوامش البحث:

[1] - بوفلجة غيات (2010)، " **القيم الثقافية وفعالية التنظيمات**"، وهران، دار القدس، ص15.

[2] – مالك بن نبي(2013)، "**مشكلة الثقافة**"، الجزائر، دار الوعي، ص 74.

[3] - المرجع السابق، ص 50.

[4] - مالك بن نبي (2008)، "**من أجل التغيير**"، ط6،دمشق، دار الفكر، ص55.

[5] - مالك بن نبي(2006)، "**بين الرشاد والتيه**"، ط6، دمشق، دار الفكر، ص95.

[6] - مالك بن نبي، "**من أجل التغيير**"، مرجع سبق ذكره، ص 64 و ص 61.

[7] - مالك بن نبي (2009)، " **المسلم في عالم الاقتصاد**"، دمشق، دار الفكر، ط9، ص18.

[8] - مالك بن نبي(2009)، "**القضايا الكبرى**"، ط9، دمشق، دار الفكر، ص 51.

[9] - مالك بن نبي (2009)، "**تأملات**"، ط9، دمشق، دار الفكر، ص167.

[10] - مالك بن نبي (2012)، "**شروط النهضة**"، ط11، الجزائر، دار الوعي، ص 21.

[11] - مالك بن نبي، "**المسلم في عالم الاقتصاد**"، مرجع سبق ذكره، ص 77.

[12] - مالك بن نبي (2006)، " **وجهة العالم الإسلامي**"، ط6، دمشق، دار الفكر، ص60.

[13] - مالك بن نبي (2013)، "**ميلاد مجتمع**"، ط1، الجزائر، دار الوعي، ص 29.

[14] - مالك بن نبي، "**تأملات**"، مرجع سبق ذكره، ص 56.

[15] - مالك بن نبي، "**شروط النهضة**"، مرجع سبق ذكره، ص 115.

[16] - مالك بن نبي، "**ميلاد مجتمع**"، مرجع سبق ذكره، ص 94.

[17] - المرجع السابق، ص 74.

[18] - مالك بن نبي، "**من أجل التغيير**"، مرجع سبق ذكره، ص 59.

[19] - خليل محمد حسن الشماع و خضير كاظم حمود (2009)، "**نظرية المنظمة**"، ط9، عمان، دار المسيرة، ص328.

[20] - مالك بن نبي (2009)، "**مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**"، ط9،دمشق، دار الفكر، ص115.

[21] - مالك بن نبي، "**بين الرشاد والتيه**"، مرجع سبق ذكره، ص 195.

[22] - مالك بن نبي، "**شروط النهضة**"، مرجع سبق ذكره، ص – ص: 102- 103.

[23] - مالك بن نبي، "**وجهة العالم الإسلامي**"، مرجع سبق ذكره، ص 88.

[24] - المرجع السابق، ص 60.

[25] - المرجع السابق، ص 73.

[26] - محمد عاطف (2009)، "**معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي**"، الجزائر، دار قرطبة، ص 192.

[27] - مالك بن نبي، "**بين الرشاد والتيه**"، مرجع سبق ذكره، ص 172.

[28] - مالك بن نبي، "**شروط النهضة**"، مرجع سبق ذكره، ص 142.

[29] - مالك بن نبي (2009)، "**فكرة كومنويلث إسلامي**"، ط[9]، دمشق، دار الفكر، ص 17.

[30] - مالك بن نبي، "**وجهة العالم الإسلامي**"، مرجع سبق ذكره، ص 82.

[31] - مالك بن نبي، "**ميلاد مجتمع**"، مرجع سبق ذكره، ص 18.

[32] - المرجع السابق، ص 38.

[33] - مالك بن نبي، "**المسلم في عالم الاقتصاد**"، مرجع سبق ذكره، ص 82.

[34] - مالك بن نبي، "**ميلاد مجتمع**"، مرجع سبق ذكره، ص 36. (بتصرف)

[35] - مالك بن نبي، "**شروط النهضة**"، مرجع سبق ذكره، ص 145.

[36] - مالك بن نبي، "**القضايا الكبرى**"، مرجع سبق ذكره، ص 50.

[37] - مالك بن نبي، "**شروط النهضة**"، مرجع سبق ذكره، ص146.

[38] - المرجع السابق، ص 67.

[39] - مالك بن نبي، " **القضايا الكبرى**"، مرجع سبق ذكره، ص 67.

المراجع:

1- بوفلجة غيات (2010)، **القيم الثقافية وفعالية التنظيمات**، وهران، دار القدس.

2- مالك بن نبي(2013)، **مشكلة الثقافة**، الجزائر، دار الوعي.

3- مالك بن نبي (2008)، **من أجل التغيير**، ط6، دمشق، دار الفكر.

4- مالك بن نبي(2006)، **بين الرشاد والتيه**، ط6، دمشق، دار الفكر.

5- مالك بن نبي (2009)، **المسلم في عالم الاقتصاد**، ط9، دمشق، دار الفكر.

6- مالك بن نبي(2009)، **القضايا الكبرى**، دمشق، دار الفكر، ط9.

7- مالك بن نبي (2009)، **تأملات**، دمشق، دار الفكر، ط9.

8- مالك بن نبي (2012)، **شروط النهضة**، الجزائر، دار الوعي، ط11.

9- مالك بن نبي (2006)، **وجهة العالم الإسلامي**، دمشق، دار الفكر، ط6.

10-مالك بن نبي (2013)، **ميلاد مجتمع**، الجزائر، دار الوعي.

11-خليل محمد حسن الشماع و خضير كاظم حمود (2009)، **نظرية المنظمة**، عمان، دار المسيرة، ط9.

12-مالك بن نبي (2009)، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، دمشق، دار الفكر، ط9.

13-محمد عاطف (2009)، **معوقات النهضة ومقوماتها في فكر مالك بن نبي**، الجزائر، دار قرطبة.

14-مالك بن نبي (2009)، **فكرة كومنويلث إسلامي**، دمشق، دار الفكر، ط9.